الأعـراب في القـرآن

المختار كريم

خص القرآن الأعراب بالذكر الصريح (1) وسجّل موقفا واضحا منهم وفي ذلك جانب كبير من طرافة الاسلام ممّا يبرّر النظر في هذا الموقف ، بالبحث عمّن هم الأعراب المقصودون في القرآن وعن تفاصيل هذا الموقف ودواعيه القريبة والبعيدة . ذلك أنّ الاسلام ، أخا الديانتين التوحيديتين وخاتم الديانات السماوية ، يتميّز عنها ـ فيما يتميّز ـ في هذه النقطة . فقد نشأت هذه الديانات في سلالة واحدة وفي منطقة واحدة وفي مجتمعات متقاربة في العقلية والى حدّ ما في نمط الحياة (رعوية تجارية) .

فابراهيم جد هذه السلالة كان يعيش حياة رعوية بدوية مرتاحا لها (2) ، ويوسف وقد نشأ في مجتمع حضري يحتقر الرعاة (3) يستقبل أهله

---

1) ذكر لفظ « الأعراب » عشر مرات في القرآن .

2) انظر قصة ابراهيم حسب رواية
The Holy Bible, new international Verion; New York International Bible Sociéty, pp 12-27.

3) نفس المصدر ص 57 يقول يوسف لإخوته :
« **Then you will be allowed to settle in the region of Goshen, for all shepherds are detestable to the Egyptians** »

البدويين في مصر ولا يغيّر نمط عيشهم (4) وسوسيو بعده يعيش حياة الخيام أيضا (5) . أما المسيح فرغم وجوده في مجتمع متطور فإنه يركن الى الخلوة في الصحراء ويتعاطف مع الرعاة بل ويقاوم نمط العيش في المدينة القائم على الربا والاكتناز (6) .

ومن دواعي هذا العمل أيضا هو أنّ موقف [illegible] لم يحظ حسب علمنا بالتقدير المعمق الا ما جاء من ملاحظات وتعليقات حول بعض الآيات التي ذكر فيها الأعراب وهي ملاحظات لغوية أو معنوية جزئية لم تتجاوز [illegible] الشعور بعدم قدرتها لذلك ما يمكن أن يعد تصورا متسقا لهذه [illegible] تاريخيا وسوسيولوجيا خلال فترة الإسلام الأولى .

ومن المعلوم أنّ أكثر تفسير القرآن القديمة أو المحدثة منه بقي التفسير الخاضعة حتى تلك التي تعود أصحابها لاتجاهات سياسية أخرى من ورائه تفسير القرآن الى بلوغ تصور لمجتمع مثالي مثل تفسير المنار للشيخ محمد عبده ورشيد رضا وفي ظلال القرآن للسيد قطب لأنه احتفظت بالسورة وحدة موضوعية بين القضايا كل واحدة على حدة . وفي اعتقادنا أن جود القضايا الكبرى في القرآن وتناول كل قضية على حدة ومتابعتها في كل النصوص القرآنية وتغذية هذه المتابعة بأسباب النزول وما حف بها من معطيات تاريخية أوسع توفرها كتب السيرة واسناد ذلك بالمباديء العامة ومنطق الواقع يضفي على هذه النصوص معقولية كبيرة ويسمح بتمييز المواقف الوقتية العرضية من البدئية الجوهرية وتلك هي سبيل هذا العمل في تبين موقف القرآن من الأعراب فالنصوص القرآنية تمثل الهيكل العظمي لهذا الموقف وأسباب النزول والمعطيات التاريخية الحافة به قريبة أو بعيدة كانت بمساعدة التحليل المنطقي تكسوه لحما وتعطيه الملامح الواضحة وبعبارة أخرى يوفر النص القرآني الموقف أساسا وغيره من المعطيات يوفر التحليل .

4) نفس المصدر ص 64 وص 78 وما بعدها .

5) نفس المصدر ابتداء من ص 1087 .

6) نفس المصدر .

وبالإضافة الى النقاط المنهجية المذكورة فاننا سنكون ملتصقين بالآيات المتعلقة بالأعراب وبأسباب نزولها ما دمنا نبحث عن تفاصيل الموقف وأسبابه القريبة أما اذا انتقلنا للبحث عن الأسباب البعيدة المتصلة بأسس الدعوة الاسلامية فاننا سنتحرر نسبيا من هذا الالتزام .

وأما خطوات العمل فهي أربع أولى تخصص لتوضيح مدلول المصطلح في بعده الموضوعي وثانيه لتحديد فترة انشغال القرآن بالأعراب وثالثه لفحص الموقف في تفاصيله وأسبابه تبعا لترتيب النزول الزمني ورابعه للكشف عن العلل البعيدة أو الأسس المتحكمة في موقف القرآن من الأعراب .

1) في المصطلح :

ما معنى « الأعراب » ؟ ننظر مع [illegible] المتأخرين فنجد : « الأعراب هي صيغة جمع وليست بجمع للعرب على ما روي عن سيبويه قال العرب هذا الجيل المعروف مطلقا والأعراب سكان البادية منهم . . . وقال العرب سكان المدن والقرى والأعراب سكان البادية من هذا الجيل أو من اليهم » (7) .

نلاحظ أن صاحب هذا التفسير يشرح لفظ الأعراب من الناحية الصرفية فيقول بعرب فكلاهما صيغة جمع ويفصله عنه في المعنى فهو لا يعني العرب مطلقا يدل على ذلك لفظ عرب وأما المستوى الثالث من تعريف الأعراب بعد اللغة والمقارنة المعنوية فهو تعريفة بالإيجاب أي على من يطلق . وجعله يطلق على سكان البادية من بين العرب وفي المستوى الرابع وسعه ليشمل موالي البدو العرب ويبدو أن هذا المعنى نتج عن توسع رقعة « البلاد العربية » بعد مجيء الاسلام .

هذا التحديد على ما فيه من جهد لضبط حدود المصطلح يُبقي على بعض الغموض لأنه ينظر الى البادية باعتبارها وحدة . والأمر ليس كذلك . ويذهب صاحب تهذيب اللغة قبله بعشرة قرون الى منهج أقوم في تحديد

7) روح المعاني المجلد 4 ج 11 ص 4 .

المصطلح فأخرجه من اطار المكان « البادية » الى اطار النشاط المعيشيّ حيث سجل : « ورجل أعرابي بالالف اذا كان بدويا صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلإ وتتبع لمساقط الغيث سواء كان من العرب أو مواليهم » (8) وعلى هذا الأساس فليس كل بدوي أعرابيا وان كان كل أعرابي بدويا فالأعراب مجموعة تحتية متميّزة في البدو . وحينئذ فلا البادية ولا البدو شيء متجانس كما يذهب لذلك الألوسي . والعلامة ابن خلدون وان أعرض اعراضا تامّا عن استعمال مصطلح « الأعراب » لأمر سنبينه ، ميّز في مقدمته ضروبا ثلاثة من البداوة أولها جعله لمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح (9) وتتميّز حياة هؤلاء القوم بالاستقرار وثانيهما لمن « كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر » (10) وهم « ظعن في الغالب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم فالتقلب في الأرض أصلح بهم » (11) وثالثها لمن « كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنا » .

وهكذا فإن مصطلح « الأعراب » يطلق على من كان « معاشه في السائمة » سواء أكانت غنما أم بقرا أو إبلا وأما من كان معاشه في الزراعة فهو بدوي لا غير . وفي القرآن الكريم نجد إشارة تدعم هذا الرأي وهي في قوله تعالى : « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم » (12) هذه الآية تتحدث عن المتخاذلين في غزوة الأحزاب فهم يودون الفرار الى البادية وعبّرت الآية عن ذلك باسم الفاعل « بادون » وقد أتبعته بجار ومجرور بمعنى الظرف وفي ذلك ما يدلّ هي التدقيق ذلك أن « بادون » تعني دخلوا البادية وهي ظرف أوسع من الظرف الثاني « في الأعراب » والظرف الثاني أضيق من البادية وأوغل فيها لما في الآية

---

8) تهذيب اللغة مادة ؛ عرب ج 2 وعنه نقل لسان العرب .

9) المقدمة المجلد الأول القسم الأول طبع دار الكتاب اللبناني ص 214 .

10) نفس المصدر س 215 .

11) نفس المصدر .

12) سورة الأحزاب الآية 20 .

وفي سورة الأحزاب عموما من شدة خوف « المعوقين » المتخاذلين ورغبتهم في الفرار أبعد ما يكون عن مكان الخطر يثرب .

هذه دلالة مصطلح الأعراب من الجهة الموضوعية الاّ أنّ للمصطلح بعدا حضاريا نفسيا ذاتيا ينبغي في رأينا أن يعالج في موقف القرآن منهم .

2) متى انشغل القرآن بالأعراب ؟

لا تتجاوز الفترة التي تحدث فيها القرآن عن الأعراب أربع سنوات ونسبتها لا تتجاوز خمس مدة الوحي وهي الى جانب قصرها جاءت متأخرة اذ لم يلتفت اليهم الاّ بعد تسع عشرة سنة من بداية الوحي (13) فهل يعني هذا أن الإسلام لم ينتبه لوجودهم الا بعد هذه المدة ؟

تورد كتب السيرة والتاريخ أخبارا مبكّرة في التاريخ الاسلامي تعود الى السنة الأولى من الهجرة تدلّ على أن الرسول ربط صلات مع البدو المتحركين حول المدينة ومكّة لعزل قريش من جهة ولحماية المدينة من جهة أخرى . هذا هو المبدأ الأساسي لسياسة الرسول بعد الهجرة مباشرة وحتى أثناءها (14) ففي السنة الأولى عقد اتفاقا مع بعض شيوخ بني ضمرة (15) ثم تلاه اتفاق بينه وبين بني غفار سماه السهيلي بالمدامجة (16) وآخر مع خزاعة وقد أسلم بعضها (17) وثالث مع أسلم « لمن آمن منهم وأقام الصلاة » (18) وكتب عهودا أخرى مع فروع من جهينة (19) .

---

13) أول مرة يتناول الأعراب عن قصد في سورة الفتح وقد نزلت سنة ست للهجرة) .

14) انظر د . عون شريف قاسم ، نشأة الدولة الاسلامية ، الوثيقة رقم 4 ص 289 .

15) نفس المصدر الوثيقة رقم 2 ص 293 .

16) نفس المصدر الوثيقة رقم 5 ص 293 .

17) نفس المصدر الوثيقة رقم 3 ص 290 .

18) نفس المصدر الوثيقة رقم 4 ص 292 .

19) نفس المصدر الوثائق رقم 6 ، 7 ، 8 .

والى جانب هذه العلاقات السياسية أساسا كان الرسول يرسل معلمين لنشر الدعوة حيثما استطاع وكان يسعى لاقناع رؤوس القبائل البدوية الوافدة عليه بأسس الاسلام وقد ذكرت كتب السيرة والتفاسير بعثتين الى هذه القبائل البدوية كان مآلهما الفشل اذ قتل فيهما كل المعلمين عدا واحدا (20) .

كما نجد لعلاقات المسلمين الأول بالقبائل البدوية وجها ثالثا تمثل فيما يمكن أن نطلق عليه مصطلح المناوشات العسكرية أو الوقائع البيضاء وخلاصتها أن الرسول كان يخرج في جيشه الأول لمواجهة مجموعة بدوية ما لكنّه عندما يحل بالمكان لا يجد لها أثرا ممّا جعله ييأس من هذا الأسلوب ويقلع عنه بعد أن خبر أمره (21) .

ومجمل القول أنّه كانت للرسول والمسلمين الأول صلات مبكرة متنوعة بالأعراب المقيمين حول المدينة وحول مكّة وعلى ساحل البحر الأحمر وهي على تنوعها تجتمع كلها في اطار واحد هو البحث عن المحايدة إن لم يوجد الى المناصرة سبيل . ولكن رغم هذا لم يرد ذكرهم في النص المقدس الا في السنة الخامسة بعد الهجرة . ومن الطريف أن يكون ذكرهم لأول مرة عرضيا (22) فبعد أن احتلوا موقعا هامّا في سياسة الرسول فأدوا وظائف وأخلوا (من وجهة نظر المسلمين) بأخرى يسجل اسمهم في النص المقدس وان عرضا وكأن ذلك مؤشر على بداية مرحلة جديدة في التعامل معهم إذ من هذا التاريخ ما ذكر الأعراب قط الا عن قصد .

ففي السنة السادسة يخصص لهم القرآن ست آيات من سورة الفتح ثم بعد سكوت دام ثلاث سنوات يذكرون مرة ثانية اذ تخصص لهم سورة التوبة حيزا هاما بلغ سبع عشر آية من جملة 129 آية . فاذا ما قدرنا كثرة القضايا

---

20) انظر سيرة بن هشام القسم II ج II و III و IV ص 169 وما يليها وص 183 وما يليها

21) انظر سيرة بن هشام القسم II ج III و IV ص 280 .

22) سورة الأحزاب الآية 20 .

المثارة (24) تبينا أهمية موضوع الأعراب في القرآن خصوصا أنهم يذكرون في نفس السنة مرة أخرى في الآيات الخمس الأخيرة من سورة الحجرات . فما هو موقف القرآن منهم ؟

3) موقف القرآن من الأعراب :

3 ـ 1) في المصطلح :

استعمل القرآن في كل الآيات المذكورة بصفة متواصلة مصطلح « الأعراب » ولما كان القرآن عربيا مبينا (25) ولما كان السر في ذلك مخاطبة العرب بلغتهم (26) وفي ذلك يتفق كل الدارسين فانه من البديهي أن يكون هذا المصطلح متداولا بين كل الناس أو بعضهم على أقل تقدير .

ولكن الناظر ينظر في ما دوّن من الشعر الجاهلي وهو ديوان العرب بحثا عن هذا اللفظ فلا يجد له أثرا في حين أنه استعمل عشر مرات في القرآن فيتساءل عن سر ذلك . فهل يعني هذا أن أهل اللغة الأصليين هؤلاء الذين يبعث اليهم أهل المدر أحداثهم ليتعلموا اللسان العربي يجهلونه وهل أن اللفظ من الدخيل ؟

ننظر في المعاجم فنعرف أن اللفظ عربي الأصل كما نجد إشارة في « تهذيب اللغة » نقلها عنه لسان العرب تفك هذا الغموض وهي : « والأعرابي إذا قيل له : يا عربي فرح بذلك وهشَّ له والعربي إذا قيل له يا أعرابيٌّ غضب له » (27) فنفهم من هذا أن للمصطلح وجهين وجها موضوعيا وقد حددناه و وجها ذاتيا حضاريا ملازما للأول بل يغلب عليه يصور موقف العرب المستقرين من الرحّل وهو موقف يحمل في طياته احتقارا لهذه الطائفة

24) منها وضع حد لعهود المشركين والدعوة لحربهم ولحرب أهل الكتاب والتحريض على ذلك وذكر المتخاذلين في غزوة تبوك بتفصيل .

25) الآية الثانية من سورة يوسف .

26) قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم . . . » ابراهيم الآية 4 .

27) انظر تهذيب اللغة ولسان العرب في مادة عرب .

من العرب ويصور تعالي الحضري على البدوي عموما وهو يؤشر من وراء ذلك سعي المدينة العربية ـ على صغرها ـ للهيمنة الروحية العقائدية والاقتصادية السياسية على ريفها رغم اتساعه . ومما يزيد هذا البعد تأكيدا ويرجعه الى فترة مبكرة في التاريخ العربي ما نقل من خبر الحليس الكناني أثناء أحداث صلح الحديبيّة . فقد مال الى ترك الرسول يدخل الكعبة معتمرا وخالف في ذلك رأي القريشيين فقالوا له : « اجلس فانما أنت أعرابي لا علم لك » فهيجه هذا الرد أيما تهييج حتى أنه هددهم باثارة الأحابيش عليهم وكان زعيمهم إن لم يسترضوه بطلب امهالهم (28) كما نقل عن الرسول ـ وهوالحضري ـ نفوره من طباع البدو (29) حتى أنه كان لا يريد هداياهم (30) بل إننا نجد في القرآن أن الله لم يبعث نبيا الا من قرية (31) فهو ينزه رسالته عن أن يحملها بدوي .

وعلى أساس هذه الملاحظات يمكن أن ننتهي الى استنتاجين :

أولهما أن القرآن لم يبتدع هذا المصطلح ولا أدخله للعربية وإنما وجده متداولا بين العرب الحضريين فتبناه ودعّم وجوده وعمق دلالاته الحضارية الذاتية بالاستعمال .

وثانيهما أن استعمال القرآن لمصطلح « الأعراب » محمل بموقف ناشيء في الحضر تجاه هذه الطائفة وعلى هذا الأساس فأول ملامحَ لِمَوْقِفِ القرآن من

28) سيرة ابن هشام القسم II ج II و III ص 312 .

29) قال حديث مسلم : « حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبوه كريب قالا حدثنا أبو أسامة وابن نمير ، عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : قدم أناس من الأعراب على رسول الله (ص) فقالَ أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا نعم : قالوا لكنا والله ما نقبل فقال رسول الله (ص) « وما أملك ان كان الله نزع منكم الرحمة ؟ » (انظر ابن كثير مختصر تفسير ابن كثير ج 2 ص 165) .

30) أهدى أعرابي هدية للرسول فرد عليه أضعافها وقال : « لقد هممت ألاّ أقبل هدية إلاّ من قرشي أو أنصاري أو دوسي » وهؤلاء كلهم يسكنون المدن : مكة والطائف والمدينة واليمن . وفسر الرسول قوله : « من سكن البادية جفا » (انظر ابن كثير . مختصر تفسير ابن كثير ج 2 ص 165) .

31) [illegible] قبلك إلاّ رجالا نوحي اليهم من أهل القرى » سورة يوسف الآية 109 .

الأعراب كامنةٌ في المصطلح ذاته اذ المصطلح ذاته موقف (32) وهو موقف حضاري ذاتي نفسي تبناه القرآن بتبنيه للمصطلح غير أنه أدخل عليه تعديلا هاما يحتاج الى توضيح .

تبيّنا أن لفظ الأعراب كان معروفا متداولا وأنه كان يعبّر عن تعالي الحضريين وقريشا خاصة عن الأعراب المترحلين واستعمل القرآن نفس اللفظ ولكنه يتضح بَعْدَ النظر أنه أدخل عليه تغييرا هاما فإذا كان لفظ الأعراب في ذهن وسط ما قبل الاسلام يستدعي لفظا معادلا مقابلا له وهو الحضري أو القرشي أو اليثربي . . . فإنه بعد مجيء الاسلام وبعد هجرة الرسول وأصحابه نحو المدينة أصبح يستدعي في ذهن المسلم لفظا مقابلا آخر وهو « المهاجرون » . وقد تأسّس هذا البعد الجديد بفضل سياسة الرسول التي كانت تسعى الى قضم سلطان قريش الروحي في الجزيرة العربية باجتذاب الأنصار اليه حتى أنه لا مفر من حالتين فإما أن يكون الفرد من المهاجرين في سبيل الله ورسوله (33) أو ممّن يدين بدين قريش وينتمي اليها حتى أن هنالك من لم يهاجر الى المدينة وبقي في باديته ومع ذلك عدّ مهاجرا لمناصرته الدين الجديد (34) غير أنه ينبغي أن نلاحظ أن القرآن وإن أضاف هذا المعنى الجديد فإنه لم يمح ما في المصطلح من اشارات قديمة . والى جانب هذا المعاني الكامنة في المصطلح ففي الآيات المخصصة للأعراب مواقف مفصلة وأسباب مباشرة وأخرى بعيدة تحتاج الى نظرة أعمق .

---

32) لعل هذا البعد الحضاري المحمل في المصطلح هو الذي جعل ابن خلدون في مقدمته يعرض عن استعماله رغم أنه من الجانب الموضوعي يقصد نفس الجسم الإجتماعي ورغم أن المصطلح الذي اختاره وهو « العرب » يخلط بين الجنس والنشاط المعيشي . ويمكن أن يفسّر هذا الإختيار بأمرين أولهما محاولة ابن خلدون الجادة في جعل عمله منزها عن انفعال العاطفة مؤديا للمقصود فحسب وثانيهما نظرته الخاصة للبداوة عامة فقد انتهى به النظر الى اعتبار أن البدو أقرب الى الخير من أهل الحضر (انظر موقفه هذا مبسوطا في مقدمته المجلد الأول ، القسم الأول الباب الثاني . الفصول الأربعة الأولى منه ، طبعة دار الكتاب اللبناني 1956) .

33) تكثر في القرآن الآيات التي تفضل المهاجرين على غيرهم وتربط الهجرة بالإيمان الصادق منها : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » 218 ، البقرة .

34) انظر د . عون شريف قاسم ، نشأنة الدولة الاسلامية ، الوثائق رقم 3 ص 290 و (4 أ) و (4 ب) ص 292 .

3 ـ 2) تفاصيل الموقف من الأعراب وأسبابه المباشرة :

يبدو أن موقف القرآن من الأعراب لم يلد مكتملا ولا منفصلا عن ممارسة الرسول والجماعة المسلمة العملية من أجل نشر الدين الجديد وتوسيعه . نشأ هذا الموقف بالتدرج من ردود فعل إسلامية تجاه الأعراب في مناسبات كان فيها لتطور الدعوة الاسلامية صلة بهم .

كانت للرسول والمسلمين تجربتان قاسيتان مع الأعراب قبل أن يذكروا في القرآن تمثلتا في قتل أفراد المجموعتين المرسلتين الى بوادي الجزيرة لتعليم البدو تعاليم الدين الجديد (35) هذه الإساءة البليغة جعلت الرسول يفكّر في الثأر لقتلى « الرجيع » (36) بل أنه حاول ذلك فعلا واستعمل الحيلة ف « أظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة » لكنّه مع ذلك « وجدهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال » (37) وبعد أن أرهق نفسه وجنوده يعود الى المدينة مستاء من اختياره الثأر سبيلا وقد عبر عن ذلك بقوله : « آيبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون » (37) والتعليل المناسب لتراجع الرسول عن موقف عملي صريح العداء للأعراب هو أنه لا يمكن حسم الخلاف عسكريا دفعة مع جسم متحرك وإن حاول ذلك فإن المستفيد الأول هو رأس الأعداء المفكر قريش لذلك انتقلت المواجهة من عسكرية الى فكرية أداتها الكلمة القرآنية . فإنه ابتداء من سنة ست الى آخر الوحي سيستعمل الرسول عوضا عن السيف سلطان الكلمة المنزلة للتأثير على الأعراب (38) وهو بذلك يعبّر عن موقف منهم ويسعى الى التأثير عليهم فكيف تجلّى ذلك في السور الثلاث التي ذكر فيها الأعراب ؟

---

35) أرسلت المجموعة الأولى سنة 3 للهجرة وهم أصحاب الرجيع والثانية سنة 4 للهجرة وهم أصحاب بئر معونة .

36) موضع .

37) سيرة ابن هشام ج 3 و 4 ص 280 .

38) هذا الإختيار أي التأثير على الأعراب بالكلمة لأن السيف قد لا يجدي معهم هو الذي نظر له ابن خلدون في مقدمته بأن عقد له فصلا في أن العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة (انظر الفصل السابع) .

3 ـ 2 ـ أ ـ سورة الفتح :

نزلت سورة الفتح سنة ست للهجرة وهي ـ في نظرنا ـ نزلت لتقيّم الأحداث التي سبقتها ولذلك فإن فهم أهدافها منعزل عن هذه الأحداث ولذلك أيضا توجب تتبع [illegible] هذه الأحداث .

تبدأ سلسلة هذه الأحداث برؤيا رآها الرسول (39) وأشاعها بين أصحابه فقد رأى في منامه أنه يدخل الكعبة هو والمسلمون محلقين رؤوسهم ومقصرين وكانت قريش قد منعتهم من دخولها منذ الهجرة ففرح بذلك أصحابه واستبشروا وانتهت بعد مواجهة فيها تطاول كبير على الرسول (40) واحتقار للمسلمين صريح (41) إلى توقيع صلح الحديبية وهي قرية على مشارف مكة حيث حبس الرسول والمسلمون المعتمرون وكانوا حوالي سبع مائة رجل (42) .

هذا الصلح لم يُرْضِ الكثير من المسلمين لأنه يرجعهم على أعقابهم خائبين ولأنه يخول لقريش استرجاع أي فرد أسلم منها ولاَذ بالمسلمين دون رضاء وليّه ولكن هناك عنصر نفسي يفوق النتائج المادية التي نصّ عليها الصلح ، تأثيرا . وهذا العنصر النفسي الخطير الخطر على الدعوة الجديدة

---

39) سورة الفتح الآية 27 .

40) أتى عروة بن مسعود الرسول وأنكر عليه فعله وكان كلما كلم الرسول أخذ بلحيته (ص) . انظر سيرة ابن هشام ج الثاني والثالث ص 313 وكذلك في مختصر ابن كثير ج 3 ص 250 واعرض عن الخبر الألوسي في مؤلفه روح المعاني .

41) من أقوال عروة بن مسعود للرسول : « يامحمد أَجَمَعْتَ أو شاب الناس . . . (ومعناه أخلاطهم وأوباشهم أنظر مادة وشب وبها حديث عروة هذا) وفي سيرة ابن هشام ج 493 ص 313 وفي مختصر ابن كثير ج 3 ص 350 .

42) انظر سيرة ابن هشام القسم 2 ج 3 و 4 ص 309 و ص 322 و ص 399 وأشار الى أن في العدد اختلاف . ومختصر ابن كثير ج 3 ص 343 وروح المعاني المجلد التاسع الجزء 26 ص 107 وذكر أنهم كانوا حوالي الف وأربعمائة رجل .

الناجم عن مجمل الأحداث تمثل في خيبة أمل المسلمين وارتباك صفوفهم (43) بل إنه بلغ حدا تزعزع معه إيمان المجموعة المسلمة بنبيها (44) وبمجرد الفراغ من الصلح كان لا بدّ أن تشرع القيادة في لأم جراح هذه التجربة القاسية فكانت سورة الفتح والجماعة المسلمة في طريقها الى المدينة .

جاءت سورة الفتح حينئذ لتقيّم الأحداث السابقة ولتعالج مضاعفاتها النفسية ولِتَرَى فيها ما لم يَرَ من عاشها من المسلمين حتى الصحابة الأقربون من الرسول ولتفصح عما لو قاله الرسول على لسانه لعسر تقبله . فهي تعارض رأسا الاحساس العام بالهزيمة فتفتتح بقوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » هذه الجملة تقرر الموقف الإجمالي من الأحداث التي سبقتها وهي ، وإن كان الخطاب موجها للرسول ، تمس كل الجماعة المسلمة ولا شك أنها بتقريرها المكعب التأكيد (أنّ + المفعول المطلق + النعت) الى جانب كونها تنزيلا حكيما له مكانة في قلوب المسلمين ترمي الى محو الإحساس بالهزيمة وهي ضمنيا تثبت أن هذا الإحساس كان عاما وعميقا حتى في نفس الرسول اذ لا يحتاج الواضح البين الى تأكيد (45) وذهب بعض المفسرين الى أن التأكيد ورد : « لأن الحكم لعظم شأنه مظنة للإنكار » (46) .

---

43) كان عمر مثلا يريد المناجزة وقد جادل الرسول في ذلك كما ذكر ابن كثير أن الرسول : « قبل الصلح على كره من بعض الصحابة » . بل كاد الأمر أن ينتهي الى عصيان الرسول فقد طلب من المسلمين أن ينحروا ويحلقوا حيث هُمْ وكرر عليهم ذلك ثلاثا « فوالله ما قام منهم رجل » واستشار في ذلك زوجه أم سلمة فنصحته بأن يفعل هو ذلك ولا يكلم أحدا ففعل « فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما » (انظر مختصر ابن كثير ج 3 ص 351) .

44) بالإضافة الى الإشارات الواردة في السورة المعبرة عن أن الشك لاط قلوب المسلمين ذكر ابن كثير ج 3 ص 353 أنه بعد أن أخبر الرسول صحابته بالرؤيا لم يشكّوا في تحقيق ذلك في تلك السنة ولما عادوا خائبين : « وقع في نفس بعض الصحابة (رضي الله عنهم) من ذلك شيء » كما أن عمر خلال العودة سأل الرسول قائلا : « أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به » وكان جواب الرسول أنه لم يحدد لذلك عامهم هذا . وفي روح المعاني أن الذي طرح السؤال رجل من أصحاب الرسول (أنظر روح المعاني المجلد 9 ج 26 ص 85) وفي سيرة ابن هشام ج 392 ص 327 « بعض من كان مع رسول الله » .

45) ذهب بعض المفسرين الى تأويلات بعيدة حتى أن هناك من اعتبرها جملة انشائية (أنظر روح المعاني المجلد 9 ج 26 ص 87) .

46) نفس المصدر ص 85 .

وغاية الآية الأبعد هي أن تعيد للجماعة المسلمة الحماس الذي أخذها بعد الرؤيا وخلال السفر الى مكة وهو شرط ضروري لتخليص الدعوة من هذه النكسة ولتطويرها ولذلك تمضي الآيات السبع الموالية لتعد بالنصر ولتذكر فضل المؤمنين الذين عاشوا المحنة وتؤكد حنو الله عليهم وتعدهم بالجنة وتتوعّد المنافقين والمشركين وتذكّر ببيعة الرضوان (47) وتدعو الى الإلتزام بها ولكن يحدث انقطاع في هذا الإسترسال وينتقل الحديث الى المُخلَّفين من الأعراب (48) وهذا الإنتقال يؤكد استعجال الحديث عنهم حتى لكأنه اعتراض حبس النفس الأول ، فالحديث عن المبايعين للرسول يشغل الآيات التي تأتي قبل الحديث عن الأعراب وبعده مباشرة فإذا أضفنا الى ذلك ما نقل عن أنس من أن الآيات التي ذَكَرَتْ رضاء الله على المسلمين نزلت بعد أن قرأ الرسول : « ليغفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخّر » وَهَنَّأَهُ المسلمون برضاء الله عليه ولكنهم تحيروا في شأنهم وسألوه في ذلك فنزلت : « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار » حتى بلغ فوزا عظيما (49) وبعدها تأتي آيات الأعراب . وفي ضوء هذه المعطيات تتضح أهمية الحديث عن المخلفين من الأعراب في عملية تقييم ما مضى والبحث عن أفق جديد . فكيف ذلك ؟ ننظر في الآيات المكرسة للأعراب فنلاحظ أنها تنقسم الى ثلاثة أقسام متدرجة من الغضب والوعيد الى تقرير حرمانهم من مغانم سينالها من لم يتخلف من المسلمين عن هذه السفرة (50) الى امكانية المصالحة بينهم وبين الجماعة المسلمة وبينهم وبين الاسلام .

---

47) من أحداث قصة الحديبية أن عثمان ابن عفان لما بعثه الرسول رسولا عنه الى قريش احتبسته عندها حتى ظن المسلمون أنهم قتلوه فقال الرسول ( ) « لا نبرح حتى نناجز القوم » ودعا الناس للبيعة من أجل المقاتلة فكانت بيعة الرضوان .

48) اسم أطلق في سورة الفتح على الأعراب الذين دعاهم الرسول الى مصاحبته في عمرته فلم يلبّوا .

49) مختصر ابن كثير ج 3 ص 340 وفي الهامش أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد .

50) لوحت الآية 15 من سورة الفتح بانطلاق المسلمين الى مغانم ليأخذوها وأولت بفتح خيبر « كما عليه عامة المفسرين » (انظر الألوسي المجلد 9 ج 26 ص 101) .

هذا التدرج يفهم منه أن موقف القرآن من الأعراب في هذه الفترة كان جدليا حركيا فلا هو بالراضي عنهم ولا هو باللافظ لوجودهم ولا هو بالمتخلي عنهم ولا هو بالمستقبل لهم على علاّتهم فكيف نفسّر ذلك ؟

يمكن أن نفسر غضب القرآن عليهم بأنة وان قيّم الأحداث السابقة في جملتها بالإيجاب فإنه يُحَمِّلُهم عبء النكسة النفسية وذلك أنهم لو كانوا مع المسلمين المتوجهين للعمرة لرجحوا الكفة ولتهيّبت قريش «المعتمرين الفاتحين» وليس من شك في أن الرسول كان قبل خروجه من المدينة يقدِّر أن دخول مكة ممكن مهما كانت ردود فعل قريش إن تم الاستعداد الكافي لهذا « الفتح السلمي » وإن خرج معه الأعراب وتذكر الروايات أنه استنفر لهذه السفرة الأعراب فتخلف كثير منهم ففسد التقدير الأول وقد ذهب ابن اسحاق الى هذا التقدير (51) وليس من شك أيضا في أن التحليل العميق يؤيد ما ذهبنا اليه ففي العام السادس من الهجرة يبدو ميزان القوى بين القوتين المتعاديتين الواعيتين بحقائق الصراع (المسلمين من جهة وقريش من جهة ثانية) متقاربا جدا فبعد غزوات قريش الثلاث (بدر وأحد والخندق) وبها ، يظهر أنه لا غالب ولا مغلوب فالمعارك سجال مع ميل طيف لقريش اذا هي التي كانت تبادر بغزو المسلمين في عقر دارهم (المدينة) وبين هاتين القوتين الواعيتين توجد قوة ثالثة هائلة هي الى الحياد أميل وهي قوة الأعراب وموقف الحياد وإن كان أرضى المسلمين في مرحلة ما ، ما عاد يرضيهم لذا أرادت قيادتهم أن يزيدوا قوة وأن يتحولوا من مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم ولكن ما السبيل الى هذا التحول الحاسم في تطور الدعوة . إنه تحريك هذه القوة المحايدة أساسا . وتحريك هذه القوة هو الأمر الذي تلمح اليه الآية 14 التي قفلت تقريع الأعراب اذ جعلت الغفران ممكنا وهو أيضا الأمر الذي تفصح عنه الآية 15 وفيها تلويح بالغنائم وحرمانهم منها ففتح خيبر يدخل في مكافأة الممتحنين

51) أنظر سيرة ابن هشام ج 493 ص 308 .

بأحداث الحديبية (52) من جهة ولكنه من جهة ثانية عقاب لمن لم يكن مع الجماعة في محنتها وحَثٌّ له على أن يكون في مستقبل الأحداث ضمنها وتصل الآية 16 الى حد التصريح بحاجة المسلمين والإسلام الى قوة الأعراب العسكرية : « قل ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » ويربط القرآن بين هذه المشاركة وطاعة الله وبين طاعة الله والأجر وبين عصيانه والعذاب دون أن يوضح أي نوع من الأجر أو العذاب وفي ذلك فتح لباب تأويل السامعين ونعني هنا الأعراب المخلفين . والآية 17 تضبط مقاييس تجنيدهم إذا استعرنا مصطلحا حديثا وهي « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج » .

وقد جسّدت هذه الآيات الست تطور الموقف من الأعراب الذي أشرنا اليه أي التحول من الصراع العسكري المميز لعلاقة المسلمين بهم خصوصا بين سنة أربع وست الى التأثير الفكري السياسي وقد أعطى هذا التوجه الى جانب عوامل أخرى (53) ثمارا سريعا وحسبنا أن نشير الى أن عدد المسلمين المشاركين في فتح مكة بعد عامين فقط من صلح الحديبية بلغ عشرة آلاف معظمهم من الأعراب اذ « في كل القبائل عدد وإسلام » (54) .

هذه الآيات مثلت ما يطلق عليه المبدأ العام لتعامل المسلمين مع الأعراب بعد عام ستة للهجرة فهم « أعراب » بما في الكلمة من خزي ما لم يندمجوا مع المسلمين اندماجا وهم « أعراب » ما لم يستعدوا لحمل السلاح لا

---

52) هذا الإختيار يؤكد طبيعة الإسلام الواقعية العملية فالمسلمون هم أيضا في حاجة الى حوافز مادية والاسلام من جهته باعتباره دعوة دينية في جانب ، سياسية في جانب آخر ، محتاج الى تعزيز هيمنته الفعلية باثبات سلطته على الجماعات التي قد تبدو مستقلة .

53) من أهمها تقهقر قريش سنة ست في صلح الحديبية إذ أنها التزمت بالسماح للمسلمين أن يحجوا في عامهم المقبل ويقيموا ثلاثة أيام .

54) من القبائل المشاركة في فتح مكة : أسلم وغفار وجهينة وسليم وبعضهم يقول انها الفت ومزينة والرواة يتفقون على أنها ألفت (انظر سيرة ابن هشام ج 493 ص 400 و 407) .

من أجل « حمية جاهلية » وإنما من أجل الاسلام ضد قوم وصفوا بـ : « أولى بأس » دون أن يحدّد المقصود بالقوم لأنّ القرآن نزل لجميع الناس (55) .

وفحص هذه « الآيات » يجعلنا نعرف الى حد ما جانبية هامة من العقيدة الجديدة وهي أنه لا يكفي كي تكون مسلما أن تؤمن بالله وبالرسول وأن تتعبّد بل ينبغي أن تنضم الى الأمة في ممارسة عملية جماعية من أجل نشر الدعوة (56) .

هذه الآيات ستتدعّم بعد ثلاثة أعوام أي سنة تسع للهجرة بما ورد في سورة التوبة ولذلك ينبغي أن نتوقف عندها بما تحتاجه من توضيح .

3 ـ 3 ـ ب) سورة التوبة :

هذه السورة شبيهة في ظروف نزولها ودواعيه بسورة الفتح فهي تشير إلى مرحلة جديدة من مراحل توسع الدعوة الاسلامية في حياة الرسول .

فبعد أن حفلت السنة الثامنة بعد الهجرة بالمكاسب اذ فتحت مكة وهزمت هوازن وهي من أقوى القبايل العربية وحوصرت الطائف فترة ، يبدو أنه عاد للرسول مطمح ساوره قبل فتح مكة وقد تمثل في مقارعة الروم وقد بعث آنذاك بثلاث آلاف جندي يقودهم زيد بن حارثة يليه جعفر بن عبد المطلب يليهما عبد الله بن رواحة وتعود بقايا هذا الجيش مهزومة وقد قتل قادتها الثلاثة .

نفس هذا المطمح يراوده سنة تسع وقد تضاعفت قوة المسلمين مرات قبل فتح مكة فاستنفر الناس لغزو الروم من جديد وتجهز معه ثلاثون الفا

---

55) راح الشراح في متاهة من التأويلات فبعضهم ذهب الى أنهم ثقيف ومنهم من اعتبرهم بنو حنيفة ومنهم من يقول إنهم أهل فارس وآخرون يرون أنهم الروم وفي المفسرين من يجعلهم فارس والروم معًا بل هناك من ذهب الى أنهم الترك (انظر مختصر ابن كثير ج 3 ص 344 ـ 354) .

56) ما سيأتي في المقال يؤكد هذه الميزة كما يمكننا أن نشير الى أن حرب الردة لم تقع ضد مجموعات رفضت التوحيد وإنما قامت ضد من أنكر الخضوع العملي للسلطة .

فهنالك حوالي عشرين ألفا من المسلمين الذين كانوا قبيل شهور في صف قريش أو في موقف الحياد . وخرج الرسول بهذا الجيش قاصدا الشام حتى بلغ تبوك فـ « أقام بها قريبا من عشرين يوما ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس » (57) وعند عودته نزلت سورة التوبة وفي هذا الأمر وجه شبه مع سورة الفتح كما توجد بينهما أوجه شبه أخرى تمثلت أولا في استعداد الرسول للعمرة استعدادا استنفر فيه الجميع والأعراب من حول المدينة واستعداده لغزوة تبوك باستنفار الجميع والأعراب من حول المدينة أيضا وثانيا في تباطؤ بعض المترددين وجماعات من الأعراب عن مصاحبته في كلتا الحالتين وثالثا في العودة دون انجاز ما استعد من أجله ورابعا نجد في كلتا السورتين نفسا حربيا صريحا وأهم اختلاف بينهما تمثل في حجم الحدث وقد تجلى ذلك في الناحية الكمية ففي حين تحتوي سورة الفتح على 29 آية تحتوي سورة التوبة على 129 آية .

تأتي سورة التوبة حينئذ مثلما أتت سورة الفتح قبلها لتغير الواقع ولتحرك التاريخ بفعل الكلمة المعبرة عن الفكرة والخالقة للفعل في نفس الوقت (58) فكلتاهما تقيم الفائت وتؤسس الجديد . فكيف أدت سورة التوبة هذه المهمة ؟ وما صلتها بالأعراب موضوع البحث ؟

يبدو أن توقف الرسول واحجامه عن مواجهة عسكرية مع الروم ناتج عن تقديره لميزان القوى تماما مثل احجامه عن محاولة دخول مكة عنوة لما اعترضت سبيله قريش وأهم ثغرة في جانب المسلمين عام تسعة تمثلت في أن مجتمع الجزيرة مازال ثنائي القيادة الروحية على الأقل وينجم عن ذلك أن التّفتّت السياسي مازال كبيرا وليس من الصائب حينئذ أن تخاض حرب في هذه المعطيات وبجماعات صلتها بالدعوة الجديدة مازالت ضعيفة .

---

57) مختصر ابن كثير ج 2 ص 136 .

58) تلك هي طبيعة الخطاب الديني ونحن نذهب في ذلك مذهب محمد أركون (أنظر كتابه l'Islam: Religion et Société وخصوصا ابتداء من ص 41) . ولكننا نذهب مذهب رجل فذ آخر وان لم ينظّر لمثل هذه القراءة وهو المصلح التونسي الطاهر الحداد .

لهذه الأسباب تكرس سورة التوبة الآيات الثماني والعشرين الأولى منها لشرح السياسة الجديدة مع المشركين محللة اياها بتحريض المسلمين على تنفيذ هذه السياسة الى منتهاها . أمهل المشركون أربعة شهور يحاربون بعدها أينما كانوا أو يدخلوا الإسلام وحرموا من الحج بعد عامهم ذاك وخصصت الآيات الموالية الى الآية 37 للدعوة الى محاربة أهل الكتاب وفي هذا الترتيب ترتيب لمهام المسلمين : ينبغي أن ينتصر الإسلام انتصارا كليا ساحقا في الجزيرة وأن يوحّد قواها ويصهرها في قوة واحدة ثم بعد ذلك يمتد الى أهل الكتاب في الشام وهذا الترتيب يعبّر عن تحديد جديد لأولويات الدعوة في مرحلتها تلك . فبعد أن اكتملت العقيدة واكتملت المبادىء التنظيمية لمؤسسة المجتمع الجديد وبعد أن ينتشر هذان البعدان في الجزيرة كلها ينشأن خارجها . وهذا التحديد الجديد هو تسطير واضح لمسار الدعوة مستقبلا وهو يختلف عن مرحلة التحسّس والتجريب التي وسمت الفترة التي قبلها (59) ولكن محاربة المشركين في كامل أرجاء الجزيرة الواسعة ليس أمرا هينا وهو لا يحتاج الى عتاد محسب ، فهذا أمر لا خلاف فيه وباستطاعة الجيش الإسلامي ان ينجزه ولكنّه يحتاج الى الإذن الإلاهي والى تحريض في كلمة قرآنية وذلك تمثلت تشريع حرب المشركين وأهل الكتاب محاجّة أحدث سبلا متعددة (60) ترمي الى اقناع المسلمين بهذه الحرب وتمضي بقية السورة في تقريع المخاذلين في مصاحبة الرسول الى تبوك والتشهير بهم وأشارت الى تأرجح نفوس المؤمنين وعاتبتهم وعاتبت الرسول أيضا حتى أن المسلمين سموها بأسماء معبّرة وهي المنقرة والمبعثر والحافرة والمثيرة والمدمدمة والمخزية والمنكلة والمشردة وكان عمر بن الخطاب كلما ذكر له اسمها « التوبة » قال : « هي الى العذاب أقرب ما أقلعت عن الناس حتى ما كادت تدع منهم أحدا » (61) وكل هذا التوتر الشديد

---

59) حسبنا أن نذكر هنا غزوة مؤتة وبها ثلاثة الاف جندي يدفع بهم على نقص عتادهم لمواجهة جيش الروم .

60) كثرت الأساليب الإنشائية .

61) روح المعاني المجلد الرابع ج 10 ص 40 .

الذي تنطق به آياتها يعتبر دلائل على حاجة المجتمع الجديد لأن توقد جذوته أكثر مما كانت تتقد في سبيل مهام أعسر وأرحب من تلك التي حققها . وهي دلائل على أن المهام الجديدة تحتاج الى تقييم جريء يكشف العيوب الكامنة في المجتمع الجديد وهي رواسب الماضي أو رواسب المجتمع القديم ولا بد من قطع الصلة بها قطعا حاسما . وفي هذا الإطار يتنزل خطاب القرآن للأعراب .

قسط الأعراب من هذا التقريع كان وافرا ويمكن أن ننظر اليه من زاويتين مختلفتين . ننظر اليه من زاوية التركيب اللغوي فنلاحظ أن لفظ الأعراب ورد صريحا في ست مرات ، في اثنتين منها كان مسبوقا بمن التبعيضية (62) وفي ثلاث مرات مسبوقا بمن التخصيصية (63) ومرة عاريا من أي تخصيص ملحقا بلام الاستغراق (64) والخطاب يتلون ويتغير بتغير تركيب هذا اللفظ موضوع الكلام وقد كان في كل الحالات مسندا اليه . وهكذا فقد تناول الحديث الأعراب بالتفصيل اذ مع لام الاستغراق كان الحكم عاما مطلقا ومع من التخصيصية كانوا يمثّلون محل اهتمام من بين الجماعات التي شاركت في الأحداث قبل غزوة تبوك وبعدها ومع من التبعيضية غوص في تفاصيل هذه الطائفة من المجتمع .

وأهم استنتاج من هذه الملاحظات هو أن الأعراب سنة تسع للهجرة تماما مثل سنة ست في سورة الفتح كانوا يتنزلون في مخطط تطور الدعوة الجديدة وتدعمها وتوسعها منزلة عسكرية (اذ السياق في كلتا المناسبتين عسكري) عظيمة الشأن ، وننظر الى هذا الخطاب من ناحية المعنى فنلاحظ فيه تدرّجا من الشدة والقسوة الى اللين والعتاب ، أقسى القسوة تمثل في اغراق الجنس عامة في حكم تفضيلي في الكفر والنفاق والعجز عن معرفة الدين فهو يبوئهم موقع

---

62) الآية 98 : « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما . . » والآية 99 : « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر . . . » .

63) الآية 90 : « وجاء المعذرون من الأعراب . . . » والآية 101 : « وممن حولكم من الأعراب منافقون . . . » والآية 120 : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا . . . » .

64) الآية 97 : « والأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله . . . » .

الصدارة في معادة الاسلام ومن العيوب التي سقطت فيها التفاسير أن جعلت من هذه الآية حكما مطلقا على الجنس لا يقيده زمان ولا مكان ولا ظرف فابن كثير مثلا يحاول أن يعلّل الحكم ويدعمه بأحاديث وأخبار وكذلك فعل الألوسي في تفسيره روح المعاني وأضاف مفسّرا : « لتوحشهم وقساوة قلوبهم وعدم مخالطتهم أهل الحكمة وحرمانهم استماع الكتاب والسنة وهم أشبه شيء بالبهائم » (65) وينزلق السيد قطب نفس المنزلق فيكتب في تفسيره « في ظلال القرآن » ؛ « والتعبير بهذا العموم يعطي وصفا ثابتا متعلقا بالبدو والبداوة فالشأن في البدو أن يكونوا أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » (66) ويذهب بعد أن مسخ الآية الى تعليل متفلسف يربط جدارتهم « بعدم العلم بالحدود » بأنها ناشئة من ظروف حياتهم وما تحدثه في طباعهم من جفوة ومن بعد عن المعرفة وعن الوقوف عند الحدود ومن مادية حسية تجعل القيم المادية هي السائدة .

كل هذه التفاسير تتهاون بظروف النزول وأسبابه وأهدافه وتطمح لاستخراج القوانين العامة المترفعة على الزمن فيغفل أصحابها حقيقة هامة هي أن هذه الآية وغيرها لم تأت لتثبت حكما يلصق بالأعراب الى أبد الآبدين ولكنها نزلت لتفعل فيهم ، لتغيرهم بفعل الكلمة ووقعها على النفوس والا فكيف نفهم العتاب الجميل الموجه الى هؤلاء الأعراب بنفس المناسبة . وقد حاول بعض المفسرين أن يتجاوز هذا النقص فكان يقول : « اذا تلا أحدكم هذه الآية فليتل الأخرى » (67) يعني بها الآية الموالية أي « ومن الأعراب من يؤمن بالله . . . » ولكن هذا التحيّل على الصعوبة لا ينفي أن قراءتهم للنص القرآني تفقده روحه وتخرجه من نص حي غاية الحياة يعالج معضلات مباشرة الى نص ميت وكأنّه قوانين أو أشكال رياضية منطقية نظرية .

---

65) روح المعاني المجلد الرابع ج 11 ص 4 .

66) في ظلال القرآن ج 3 1699 .

67) روح المعاني المجلد الرابع ج 11 ص 4 .

وعلى كل حال فنحن نرى أن القرآن بحكمه هذا القاسي لا يرمي الى تقرير حكم تجاه فئة ولكنه يهدف الى تغييرها بتحميسها السلبي (68) وحتى استعمال مصطلح أعراب بما فيه من معان أوضحناها يفعل نفس الفعل فيكفي لأن ترفع عن الاعرابي هذه الوصمة وأن يمحى تجاهه هذا الحكم وهو البدوي أن ينضم الى الاسلام ويخضع لأحكامه أي الى « حدود ما أنزل الله على رسوله » .

ولكن النص القرآني في دفق سورة التوبة لم يكتف بذلك بل اجتذب الأعراب بأساليب أخرى فقد ذكر المعذّرين (69) وعذرهم وجرّح القاعدين كما لم يغفل الفوارقَ بين الفئة الواحدة فإذا فيهم من يؤمن بالله واليوم الآخر وفيهم من ينافق بل فيهم من كان يتراوح بين الخير والشر ويخلط عملا صالحا وآخر غير صالح وفي هذه التعريجات والتفاصيل يتدرج الخطاب من الصلابة الى اللين حتى يبلغ منتهاه وتصبح اللهجة لهجة عتاب صرف ترفع عنهم حق القعود عن تَبُّوك بلطف وتقرن نفوسهم بنفس الرسول وتَعِدُ المجاهدين خيرا كثيرا : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ضمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوٍّ نيلا الا كُتب لهم به عمل صالح إنّ الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وبهذا تعبّر الآية عن تجاوز النقد للبناء وعن أنّ الصفحة طويت وأنّه يمكن أن يلتحق الأعراب وغيرهم من المتخاذلين بالجماعة المسلمة فيحاربون الى جانبها المشركين وأهل الكتاب الضالين . وهذا التدرج (وقد لاقيناه في سورة الفتح أيضا لما انتهت الى دعوتهم لمحاربة « قوم أولي بأس شديد ») يمثل

---

68) هذا الأمر معروف في الحماسة العربية أن تؤلم بالقول لتحرك الهمم (أنظر حماسة ابي تمام مثلا وخطب علي بن أبي طالب) .

69) اختلف المفسرون في أنهم كانوا معتذرين بعذر صحيح أو مختلق وقد ذهبنا الى التأويل الأول حتى يستقيم معنى الجملة المعطوفة عليها : وجاء المعذرون ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا . . . (أنظر التنزيل ص 337 . وتفسير الجلالين : المعذّرون أي المعتذرون بمعنى المعذورين ص 165) .

في نظرنا روح النصّين ويعبّر عن حاجة الدعوة الجديدة للأعراب ليناصروا العقيدة الجديدة مناصرة عسكرية ولذلك تتراوح العلاقة معهم بين الشدة واللين لأن غايتها القصوى احداث الإنقلاب العظيم فيهم . وإن وجد بين ما خصص للأعراب في سورة الفتح وما خصص لهم في صورة التوبة اختلاف فهو مرتبط بتوسع آفاق الدعوة الاسلامية وحاجتها الى تكتيل كل قوى عرب الجزيرة وقد تجسد ذلك في الصيغة التي ورد فيها لفظ الأعراب ففي حين اكتفت سورة الفتح بالحديث عن « المخلفين من الأعراب » احتضنت الآية 97 من سورة التوبة الأعراب كلهم باستعمال لام الاستغراق . غير أنّ جر الأعراب لمناصرة الاسلام بالسلاح وإن كان يعد شرطا لازما لانفراج التوتّر بينهم وبين المسلمين الا أنّه غير كاف . ذلك ما تبسطه سورة الحجرات بوضوح . فماذا أضافت هذه السورة وقد نزلت إثر سورة التوبة بفترة وجيزة ؟

3 ـ 3 ـ ج) سورة الحجرات :

كانت سورة التوبة وقد سبقت سورة الحجرات ببضعة أشهر بمثابة الإنذار الأخير لمن لم يسلم من عرب الجزيرة قاطبة وقد أعطت ثمارها بسرعة اذ تهافتت قبائل الجزيرة كلها في صف الإسلام وبعثت كل قبيلة بمن ينوب عنها في اعلان ذلك حتى أنّ سنة تسع هذه سميت بـ « سنة الوفود » فنشأ عن ذلك انتشار كبير لمبادىء الاسلام الأساسية ونشأ عن ذلك تحاك قبائل مختلفة فجاءت سورة الحجرات لتسنّ في جزء منها مبادىء التعامل بين الجماعات البشرية مهما كانت وفي جزء ثان تعامل هذه الجماعات مع قيادتها الروحية وفي جزء ثالث وأخير تثير مرة أخرى قضية الأعراب وتضبط سبيلهم الى الإيمان .

ويمكن أن نختزل مبادىء التعامل العامة بين الجماعات في ما يلي :

1 ـ التريّث في الأحكام الهامة (الآيات 6 ـ 7 ـ 8) .

2 ـ تقاتل طوائف المؤمنين وارد والواجب اصلاح ما بينها فإن أصرت واحدة فينبغي مقاتلتها (الآيتان 9 ـ 10) .

3 ـ الناس متساوون جنسا (ذكر وأنثى) وشعوبا وقبائل « خلقوا ليتعارفوا » .

وينحصر أساس التعامل مع القيادة الروحية (الرسول) في مبدإ واحد هو الإعظام والتبجيل والتوقير .

وأمّا ما خصّ به الأعراب فيفوق نسبة 30٪ من السورة بل إنه ، في نظرنا ، يمثل الدافع للحديث عن مبدإ توقير الرسول فالآيتان الرابعة والخامسة نزلتا في أقوام من الأعراب من بني تميم « كما صرح بذلك أكثر أهل السيرة » (70) وأشارتا الى سوء أدبهم اذ نادوه وهو في بيته بغلظة وبأصوات عالية وأساس العلاقة بالرسول ورد في نهي « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض . . » (71) وفي اثبات « انّ الذين يغضّون أصواتهم عند رسول اللّه أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم (72) ولا يخفى ما بين هذه القاعدة وما أخذت عليه الأعراب فالصلة المعنوية واضحة والمكانية أيضا اذ الآيات متوالية مباشرة . وعلى هذا الأساس فإنّه اذا كانت نسبة الآيات المنسوبة للأعراب الملموسة سبع آيات من ثماني عشرة فإن وزنها المعنوي يفوق ذلك بكثير من ذلك أنّ الإشارة الى صراع الطوائف يهم الأعراب أولا ، لما تجرهم اليه حياتهم جرا من صراعات على المياه والمراعي وغيرها من الشؤون الصغيرة التي يعظمها الخلاف .

بعد هذا المستوى من النظر نلاحظ أن الآيات المخصصة للأعراب يتواصل فيها التوتّر المميّز للعلاقة بين المسلمين والأعراب وهي تؤكد بصورة غير مباشرة في الآيتين (4 و 5) وبصورة صريحة في الآيات الخمس الأخيرة من السورة ، أولوية شرط المساندة العسكرية المتحكّم في العلاقة بالأعراب وقد لاحظناه في معرض شرحنا لما له صلة بموضوعنا من سورتي الفتح والتوبة غير

---

70) روح المعاني المجلد 9 ج 26 ص 141 .

71) سورة الحجرات الآية 2 .

72) سورة الحجرات الآية 3 .

أن هذا التوتر قد خفّ . فإننا نلاحظ في الآيتين (4 و 5) أن لهجة القرآن تجاه هؤلاء الجفاة المتهورين لا تناسب في شدتها فعلتهم فقد جاؤوا الرسول ونادوه بغلظة ليفاخروه قائلين إنّ مدحهم زين وذمّهم شين وعقد لهم مجلس مفاخرة فكان الرد أنّ « أكثرهم لا يعقلون » فإلى جانب أن النقد لا يشمل جميعهم فإن المعنى البعيد أنّه لا يأخذ أخطاءهم بعين الجد الصّارم وفي المعنى استعداد للتجاوز .

أمّا اذا تفحصنا أسباب النزول وما حف بها من أخبار فإننا نكتشف أمرا يؤيد من جهة ما ذهبنا اليه من تأكيد الآيتين لِأَوْلَوِيَّةِ المساندة العسكرية في علاقة المسلمين بالأعراب ومن جهة أخرى يكشف سر انخفاض التوتر بين المسلمين والأعراب فقد نقل عن سعد بن عبد الله أنّ النبي (ص) « سئل عن قوله تعالى (إنّ الذين ينادونك الخ) فقال هم الجفاة من بني تميم لولا أنهم من أشد الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله تعالى عليهم أن يهلكهم » (73) وأبو هريرة جعل هذا الأمر « أحد أسباب حبّهم » (74) فمن الواضح أنّ القرآن في معالجته لعلاقة المسلمين بالأعراب ينزل حمل السّلاح دفاعا عن الدين الجديد المنزلة الأولى وتليها آداب التعامل وخاصة مع الرسول .

وأمّا الآيات الخمس الأخيرة من سورة الحجرات فإنّه وإن قيل إنها نزلت في قوم من بني أسد قد توجهت الى الأعراب كافة باستعمال لام الاستغراق : « قالت الأعراب آمنا . . . » (75) وهي أيضا عبّرت عن التوتر الموصوف في علاقة المسلمين بالأعراب الا أنه في هذه الآيات ينزع الخطاب الى الإنفراج ففيه انكار لدعوى الأعراب ايمانهم امتنانا على الرسول ولكنّه انكار يسلك مسلك المتأدب معهم » . . « قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم وأن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إنّ اللّه غفور رحيم » ويتجلى

73) روح المعاني المجلد 9 الجزء 26 ص 142 .

74) نفس المصدر .

75) يذهب الألوسي في روح المعاني الى أنّ الأعراب هنا لا تفيد العموم نفس المصدر ص 167 .

التأدب في عدم التكذيب الصريح ويرى ابن كثير في هذه الآيات « تأديبا » وأنهم لم يكونوا منافقين وحجته أنهم لو كانوا كذلك لعنفوا وفضحوا (76) أمّا الآية 15 فتشرح المقابلة المعنوية بين الإسلام والإيمان في تركيب حصري يجعل الإيمـان أرقى من الإسـلام حيث توجد صلـة بين اللّـه والرسول والذات وهي ذات خـاضعة دون ريبـة للّه وللرسـول لدرجة تستعـد معهـا لمناصرة الاسلام بالمال وبالنفس أيضا وكان الداعي لهذا التوضيح العام أن جماعة من الأعراب منت على الرسول بإيمانها وبمناصرتها له . وقد اعتبر القرآن هذا المنّ نوعا من المحاسبة للرسول والمساومة معه أو هي ضرب من احساس الأعراب بفضلهم على الاسلام فهو بذلك يعد تطاولا ولا حق لهم فيه البتّة .

4) الأسباب العميقة :

خلال دراستنا للنصوص القرآنية المتعلقة بالأعراب لاحظنا جملة من الخصائص المتعلقة بهذا الخطاب تساعد فيما نعتقد على تبيّن الأسباب العميقة المفسّرة لتوتّر العلاقة بين الأعراب والاسلام . فالنصوص المتعلقة بالأعراب تؤكد أنّ علاقة الاسلام بهم كانت متوتّرة توتّرا موصوفا حتّى قبيل وفاة الرسول غير أنه ـ وهذا أمر خطير ـ لم يقفل أيُّ نصٍّ منها باب المصالحة معهم وتلك خصيصة عامة أولى .

كما نلاحظ في النصوص بين عام ستة وعام تسعة انتقالا من مخاطبة البعض الى مخاطبة الكل رغم أن أخبار النزول تنسب الآيات الى بعض المجموعـات القبلية البدويـة ، فنفهـم أنّ القـرآن يخـاطب جنس الأعراب باعتبار ما يجمعهم وإن كان بعضهم أثار قضية الخلاف فهم حينئذ يمثلون في التصور القرآني وحده مميزة وهذه خصيصة ثانية .

---

76) مختصر ابن كثير ج 3 ص : 369 .

وأما الخصيصة الثالثة وهي عميقة الدلالة فتتمثّل في أن الخلاف مع الأعراب لم يكن قط حول أسس العقيدة الاسلامية أو حول فساد معتقدهم مثل ما كان الشأن مع اليهود والنصارى وانما تركّز حول مسائل عملية عسكرية بدرجة أولى (سورة الفتح والتوبة) وحول مسائل عملية سلوكية (سورة الحجرات) غير أن الآيات السبع الواردة في (سورة الحجرات **وإن أخذت** مسلكا تربويّا أخلاقيا فهي ذات بعد سياسي أكيد يمثل أسس السلطة في الاسلام حيث تمتزج السلطة الدينةّ والعقائدية في سلطة واحدة وهو مبدأ الطاعة النزيهة المطلقة (77) للقيادة الروحية الدينية ولو عدنا الى توتّر العلاقة سنة صلح الحديبيّة لوجدناه متمثّلا في عدم خضوع الأعراب لدعوة الرسول في مصاحبته للعمرة ونفس الأمر حصل سنة تسع لما استنفرهم لحرب الروم ومن زاوية النظر هذه ينصهر الشرطان اللذان تعرضنا لهما ونحن نتابع تفاصيل العلاقة ، شرط الإلتزام العسكري الى جانب الاسلام وشرط توقير الرسول في هذا المبدإ فبانعدامه يشتد التوتر وبتوفره ينتفي ويتناغم الأعراب مع الاسلام .

وفي ضوء هذين الشرطين أو هذا المبدأ العام المتحكّم في علاقة المسلمين بالأعراب نتبين طبيعة هذه العلاقة فهي علاقة سياسية بالدرجة الأولى ودينية بالدرجة الثانية إذ القيادة واحدة وباعتبار طبيعة العلاقة هذه فإن التوتر المزمن الموصوف الذي صوره القرآن بين الاسلام والأعراب ناتج عن سبب عميق أول هو تصادم بين عقليتين وبين نمطين اجتماعيين متضاربين .

فالعقلية الاسلامية توحيدية في كل المظاهر . فالاسلام خاتم الديانات السماوية يتبناها وينفي وجودها معه لأنّه امتداد لحقيقتها ونفي لتحريفها أمّا المعتقدات الأخرى الوثنية فهو ينفيها أصلا وقد جاء هذا الدين للبشرية

77) الطاعة يقابلها جزئيا في النظام الوضعي الخضوع ويقصر عنها في اشتمالها على عنصر ذاتي فهي خضوع ذاتي (auto-soumission) وأمّا النزيهة فمعناها خلو هذه الطاعة من أغراض شخصية أو حسابات تتعلق بالغنائم وما يليها من ربح مادي (désintéressée) .

قاطبة (78) وأصل البشر من آدم وآدم من تراب فهو أصل واحد أيضا (79) والرسول الخاتم للأنبياء واحد واذن فالسلسلة أحادية : الاه واحد ورسول واحد ودين واحد والبشرية متوحدة في جسم واحد في أصله وفي دينه ورسوله .

على هذه العقلية ، هذه الرؤية الكونية نزع الرسول الى تكوين دولة الاسلام الأولى وهي دولة ترتكز على مبدإ الطاعة النزيهة المطلقة غير أن هذه الرؤية تلطفت بالممارسة العملية وأمام وقائع صلبة فكانت صحيفة الأمة (80) وكان تشريع الجزية (81) وبعبارة أخرى كانت « السياسة » وقد قدمت أحيانا مصالح الدولة الاسلامية الناشئة على تفاصيل العقيدة وهكذا فإن الدولة الاسلامية على عهد الرسول وان فتحت منفذا للتعدد العقائدي فإنها تمسكت بالوحدة السياسية أو الخضوع السياسي لسلطة واحدة .

وفي مقابل هذه الرؤية التوحيدية نجد رؤية الأعراب وهي تعددية في كل مظاهرها فالآلهة كثيرة والسلطة الروحية المجسّدة في سدنة الآلهة متعددة أيضا والى جانب الآلهة هناك عناصر غيبيّة أخرى يعتقد فيها الجاهلي مثل الجن والغول وتمثل عناصر شر الى جانب عنصر آخر معنوي فعّال هو الدهر (82) والسلطة السياسية متعددة كذلك إذ لكل عشيرة سيّد بل إن سلطة السيّد لا تكون الاّ بمسايرة ارادة المجموعة العميقة وبتحريك اندفاع الفتيان الجامح (83) ولا ينبغي أن تفهم سلطته بمعنى « القهر » عند ابن خلدون وهذا

---

78) هناك آيات عديدة تعبر عن هذا المعنى منها « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » 33 التوبة « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » 107 الأنبياء .

79) « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » 28 لقمان ـ « كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . . . » 213 البقرة .

80) جملة من الوثائق تحدد العلاقة بين المسلمين الأوائل من مهاجرين وأنصار من جهة وبينهم وبين اليهود من جهة أخرى وقد جعلها د . عون الشريف قاسم في 52 بندا ونقلها عن سيرة ابن هاشم والبداية والنهاية لابن كثير والأموال لأبي عبيد (أنظر د . عون الشريف قاسم : نشأة الدولة الاسلامية) .

81) الآية 29 من سورة التوبة : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

82) انظر الفصل الأول من : M^ed Abdessalem; Thème de la mort.

83) نفس المصدر : 33 .

عنصر آخر يؤكد صفة التعدد والتشتّت فليس من حق السيد أن يقرر أمرا ولا أن يوقف جريان آخر . ومن الملاحظ أيضا أنّ هذا التنظيم العشائري وإن كان سائدا في كامل الجزيرة في حضرها وبدوها فإنّ حياة البداوة وهي حياة متحركة محاربة تقوي احساس الإنتماء الى العشيرة (84) وفي هذا الأمر ما يقوي مبدأ التّجـزؤ .

لهذه الأسباب نرى أنّ صدام القرآن مع البدو هو صدام بين عقليتين غير أنّ هذا الصدام تركّز على الجانب السياسي دون العقائدي ولعل التفسير الأكثر اقناعا لضعف الصراع الديني بين الإسلام والأعراب هو ضعف المعتقد الديني عموما عند البدو حتى أن البدو الذين تمسحوا قبل الاسلام كان دينهم رقيقا والشاهد على ذلك شعر شعرائهم (85) بل إنّ بشر فارس في كتابه « l'Honneur chez les Arabes » يذهب الى اعتبار أنّ العِرض يقوم عند العربي مقام الدين والعرض مؤلف من مجموعة قيم لم يعارض الاسلام الكثير منها مثل الكرم والحلم والوفاء بالوعد والضيافة .

لذلك تأكد مع البدو ضرب من الصراع هو صراع سياسي فكري ضد العقلية البدوية ذات الآفاق المحدودة بحدود مصالح العشيرة أو القبيلة أو الغنم المؤقت ودعاهم الاسلام الى حدود أوسع هي حدود الأمة حدود أمة ناشئة متوسعة في العدد والأرض وهذه الآفاق الجديدة تحتاج الى قوة عسكرية هي عند البدو الغلاظ أوفر حظا من أي جماعة أخرى ولذلك فلا مفر للاسلام من التركيز على دعوتهم للانضمام اليه بقوتهم انضمام المنصهر لا المستقل ، انضمام المطيع المنضبط وهذا المفهوم هو تطويع اسلامي لمفهوم آخر ضروري لإنشاء الدول وهو الخضوع من جانب التابعين والقدرة على القهر من جانب الحاكمين وقد لون الاسلام هذا المفهوم بلون خاص ليجعله مستساغا في عقلية

---

84) انظر الفصل الأول من : M^ed Abdessalem : thème de la mort; p 33

85) نفس المصدر ص 126 وقد أحال الأستاذ محمد عبد السلام على مؤلف :
R. Blachère : Histoire de la littérature arabe (1) p 55.

البدو فجعل سبيله اليهم الكلمة القرآنية الفعالة ذلك أن القوة تتنافر مع أنفتهم ثم إن نمط عيشهم (الرعوي الانتجاعي) يجعلهم في مأمن من أي قهر مهما كانت عتاوته وكان يمكن أن يهدر الرسول قوى المسلمين لو حاول جرّ الأعراب اليه بقوة السلاح بل إنّه حاول ذلك وأقلع عنه بعد اقتناع بفشله وكان النص القرآني ابتداء من سنة ست فأعطى ثماره سنة ثمانية ثم عاد القرآن للخطاب نفسه سنة تسع مع تعميق لتجريح الأعراب لم يبلغه سنة ست دون أن يقفل الباب للمصالحة ويدخل ذلك في باب الاستعداد للمرحلة الجديدة وهي مرحلة الامتداد نحو الشمال باتجاه أمتين عظيمتين هما الروم والفرس ولعل حلم قهر هذين العملاقين راود الرسول في فترة مبكّرة إذ نقل عنه صلى الله عليه وسلّم أنّه قبل سنة خمس كان يقول لأمته الصغيرة المحدودة بحدود يثرب « ستفتح على أمتي كنوز كسرى وقيصر » (86) ولا يتحول هذا الحلم الى حقيقة ما لم توحّد عشائر الأعراب وقبائلها عن طواعية تحت راية واحدة هي راية الاسلام وذلك عين ما حصل في خلافة عمر بعد تعثّر قصير بسبب وفاة الرسول وما نشأ عنها من تراجع بعض القبائل وقد تحققت الانتصارات في الفتوحات بفضل قبائل البدو التي كانت محل مجادلة في نصوص القرآن (87) وكأن هذه القبائل باندفاعها تكفر عن تلكئها في الاستجابة للدعوة وتبرهن على تعمق فهمها للدعوة الجديدة (88) وهذا الأمر يُثبت جدوى المنهج الاسلامي في استنفار قوى الأعراب الكامنة وتحويلها من شتات متآكل الى قوة فاعلة .

والى جانب هذين السببين العميقين المبسوطين أعلاه ، المتمثلين في التصادم بين عقليتين وفيما يمكن أن نطلق عليه الاستراتيجية الاسلامية في تكسير سلطان الأمم المجاورة يوجد سبب عميق ثالث تبيّناه بتعميق النظر في الآية الكريمة « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله

---

(86) انظر مختصر ابن كثير : ج 3 : ص 86 . وفتوح الشام ج 2 : ص .

(87) بلغ مثلا قتل أسد في يوم واحد من أيام القادسية خمسمائة شهيد ، وقد كانت أسد من نقد قراني (انظر تاريخ الطبري ج 3 ص 540 ومروج الذهب ج 2 ص 113 والكامل في التاريخ ج 2 ص 472) والى جانب ذلك فإن نصوص الفتوحات الأولى حافلة بأسماء الأبطال المنتسبين الى أسد وتميم وربيعة .

(88) فحوى خطب المسلمين أمام قادة الفرس وقد سجلت كتب التاريخ معانيها تؤكد ذلك .

على رسوله » في ضوء ممارسة الرسول وما أثر من أحاديث عنه . ويتمثل هذا السبب ـ حسب رأينا ـ في أنه كان للإسلام مشروع حضاري عام وفي ضمنه مشروع تحضيري تمديني للبدو . يدخل ذلك في طبيعة تصور الاسلام للسلطة فهي سلطة واحدة تتجمع فيها كل السلط وهذا الأمر يتناقض مع نمط العيش الانتجاعي حيث تعسر التربية الاسلامية وحيث يعسر التسيير من المركز وحيث تكون العقلية متحررة رافضة للنواميس المقيدة مهما كانت وذلك هو ما تشير اليه الآية من أنهم « أجدر ألاّ يعلموا الحدود » وممارسة الرسول تؤكد نزعته للتخلص من نمط العيش البدوي الانتجاعي فقد كان يُقطع المهاجرين للمدينة الأراضي البور (89) وقد نقل عنه أنّه قال : « من عمّر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها » (90) كما نعلم أنه كان يتخوف من عودة أصحابه الذين استقروا بعد أن كانوا بَدْوًا وقد نقل عنه قوله : « اللهم امض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم » (91) حتى أن المهاجرين كانوا « يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية » (92) ممّا يدل على أن الرسول غرس في المسلمين الأوائل غرسا عميقا روح الاستقرار والتمدّن (93) .

---

89) د . عون الشريف قاسم ، نشأة الدولة الاسلامية ص 275 ـ 276 والوثائق ابتداء من ص 357 .

90) حاشية الشيخ سليمان الجمل على شرح المنهج لشيخ الاسلام زكرياء الأنصاري ج 3 ص 561 .

91) مقدمة ابن خلدون المجلد الأول ص 219 .

92) نفس المصدر .

93) نختلف في هذا الأمر مع ما ذهب اليه ابن خلدون في مقدمته من أن عداوة الإسلام للتمدن عرضية مرتبطة بحاجة الرسول لمن يحميه (انظر رأيه هذا في المجلد الأول القسم الأول الباب الثاني الفصل الرابع ص 219 وما يليها) .